﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استحقاقُ المشركين لعذاب جهنَّمَ معَ خُسرانِهم أنفسَهم وأهليهم

لَمّا ذَكَر البيانُ الحكيمُ خُسرانَ المشركين أنفُسَهم وأهليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾؛ عقَّبَ بذكر حالِهم في جَهنَّمَ فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ﴾[1]؛ أي: لمّا شرَحَ اللّهُ تعالى أحوالَ حِرمانِهم مِن الرِّبحِ، وبيَّن كَيفيَّةَ خُسرانِهم؛ بيَّن أنَّهم لم يَقتَصِروا على الحِرمانِ والخُسرانِ، بل ضَمّوا إليه استِحقاقَ العَذابِ العَظيمِ، والعِقابِ الشَّديدِ؛ فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظُلَلٌ﴾: الظُّلَلُ: جمعُ ظُلَّةٍ، أو جمعُ ظِلّ، والظِّلُّ: ضدُّ الضّحِّ، وهو أعمُّ من الفيءِ[3]، وأصلُ (ظَلَّ) يَدُلُّ عَلَى سَتْرِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ[4]، والظِّلالُ: ما أظَلَّك من سحابٍ ونحوه، والظِّلُّ في الحقيقة إنَّما هو ضوءُ الشَّمسِ دونَ شُعاعها، فإذا لم يكنْ ضوءٌ فهو ظُلْمَةٌ وليس بظِلٍّ، والظَّلَلُ: الماءُ تحتَ الشَّجر لا تصيبهُ الشَّمس[5]، ومعنى ﴿ظُلَلٌ﴾ في الآية: ما يَستظِلُّ به الجالس تحته، وهي هنا استعارةٌ للطَّبقة التي تعلو أهلَ النّار في نارِ جهنَّم[6].

2) ﴿يُخَوِّفُ﴾: فعل مضارع، جذرُه اللُّغويّ (خوف)، وأصله يدلُّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 191.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 434.
(3) الراغب، المفردات: (ظلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظل).
(5) الجوهري، الصحاح: (ظلل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 361.

على الذُّعرِ والفزَعِ[1]، ومعنَى الخوفِ عامّةً "توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ... ويضادّ الخوفُ الأمنَ، ويُستعملُ ذلك في الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ"[2]، والتَّخويفُ الواردُ في الآيةِ بهذا المعنى المقابلِ للأمنِ[3]، فالخوفُ هو الشُّعورُ بما يؤلمُ النَّفسَ بواسطة إحدى الحواسِّ الخمس[4].

3) ﴿عِبَادَهُۥ﴾: (عبد) أصلٌ يَدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ[5]، ومنه قولهم: طريقٌ مُعبَّدٌ؛ أي: سَهْلٌ مُذلَّلٌ؛ لكثرةِ وطء الأقدام له[6]، والعَبْدُ: الإنسانُ، يُقالُ: فُلانٌ عَبْدٌ لِلَّهِ؛ أيْ: مَمْلوكٌ لَهُ، ويُجْمَعُ عَلَى عَبيدٍ وعِبادٍ[7]، والاِسْتِعْبادُ والإعْبادُ: اتِّخاذُ الشَّخْصِ عَبْدًا ورَقيقًا[8]، والعُبوديَّةُ: إظهارُ التّذلّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التَّذلُّل، ولا يستحقّها إلّا من له غايةُ الإفضال، وهو الله تعالى[9]، والمقصودُ بالعِباد في الآية: كلُّ إنسانٍ من مؤمنٍ وكافر، فهو مملوكٌ لله؛ إذ الجميعُ يخافون العذابَ على العصيان[10]، أو المراد بالعباد المؤمنون[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إخبارُ اللهِ بعذابِ المشركين في النّار تخويفًا لعباده؛ للنّجاة من سخطه وعذابه

يبيّن اللهُ حالَ المشركين في جَهنَّمَ الَّذين خسروا أنفسهم وأهليهم فيقول: للخاسِرينَ يومَ القيامةِ أطباقٌ مِن النّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم، محيطةٌ بهم، تلتهبُ عليهم، ذلك الَّذي أخبَرَ اللهُ به مِن عذابِ الخاسِرينَ يومَ القيامةِ؛ يُخَوِّفُ به عِبادَه، فاتَّقوا اللهَ يا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خوف).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 7.
(8) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(9) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عبد).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.
(11) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 434.

عبادَ اللهِ، بامتِثالِ ما أمَر، واجتِنابِ ما نهَى عنه وزَجَر؛ للنَّجاةِ مِن سَخَطِه وعَذابِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

قولُه تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: جملة بدليّة من نوعِ الخسران تشرحُ إبهامه وتوضّح إجماله[1]، فالتَّفصيلُ بعد الإجمال أشدّ وقوعًا في النّفس، ومن ثَمَّ فبينَ الجملتين كمالُ اتّصال؛ فهي بيانٌ لِما في التي قبلها من التَّهويلِ النّاشئ عن الخسران، ولكونه بيانًا تركَ العطف[2]، وخُصَّ هذا بالإبدالِ؛ لِأنَّه أشَدُّ خُسرانِهم عليهم؛ لِتَسلُّطِه على إهلاكِ أجسامِهم، والخسرانُ يشتملُ على غير ذلك من الخزي وغضبِ الله واليأسِ من النَّجاة[3].

في البدليّةِ بيانٌ لخُسرانِ المشركين بعدَ تهويلِهِ بطريقِ الإبهام

معنى اللّام ودلالتها ومرجع الضَّمير في ﴿لَهُم﴾:

اللّام في ﴿لَهُم﴾ إمّا للاستحقاق؛ أي: هذا العذابُ مستحقٌّ لهم، وإمّا للمنفعةِ تهكّمًا[4]؛ لِإنّ عادةَ اللّام عند مصاحبة المجرور - ولا سيَّما الضَّمير - إفهامُ المحبوب للضَّمير[5]، وضميرُ ﴿لَهُم﴾ عائدٌ إلى مجموعِ أنفسهم وأهليهم؛ أي: عائدٌ على المشركين المخاطبين في قوله: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، وهم المقصودون بقوله: ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾.

العذابُ مستحقٌّ للمشركين الَّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة

الغرض من تقديم الخبر ﴿لَهُم﴾:

قدّم الجارَّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ على ﴿ظُلَلٌ﴾، ولم يقلْ: (ظللٌ كائنةٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 499.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 361.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 499.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.

لهم)؛ لإفادةِ الاختصاص، فهذا العذابُ الشَّديدُ المحيطُ بهم خاصٌّ بمن لهم الخسرانُ الكاملُ الَّذي لا خسرانَ يساويه، وفي هذا زيادةُ تخويفٍ للنّاس أجمعين يجعلهم يحذرون أنْ يصيبهم ما أصابَ هؤلاء الخاسرين، وللتَّهكّم بهم؛ لأنّ اختيارَ لفظ ﴿لَهُم﴾ دون (عليهم) يعطيهم الأملَ ويوهمهم الرّاحةَ؛ فإنّ عادةَ اللّام عند مصاحبة المجرور - ولا سيَّما الضَّمير - إفهامُ المحبوبِ للضَّمير لا سيَّما مع ذكرِ الظُّلل، لكنّها تأتي من النّار، فتبدّدَ هذا الأمل[1]، وفي ﴿لَهُم﴾ ترشيحٌ لاستعارةِ الظُّلل للطَّبقة التي تعلو أهلَ النّار[2].

اختصاصُ العذابِ الشَّديدِ بمَن لهم الخسرانُ الكاملُ، تهكُّمًا بهم وتخويفًا للنّاس

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها في ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ أي: النّارُ تبدأُ مباشَرَةً مماسَّةً فوقَ رؤوسِ المشركين ملاصقةً لهم، ولو قال: (لهم فوقهم ظلل) لما دلَّ على ذلك؛ إذ مِن الممكنِ أنْ تكونَ بعيدةً، وفي هذا دلالةٌ على شدّةِ العذاب؛ فالنّارُ قريبةٌ منهم[3]، بل هم محصورون في النّار من فوقهم ومن تحتهم.

النّارُ تبدأُ مباشَرَةً فوقَ رؤوسِ المشركين ملاصقةً لها

الغرض من الإضافة ﴿فَوْقِهِمْ﴾:

أُضيف الظَّرف ﴿فَوْقِهِمْ﴾ إلى أهلِ النّار، فدلّتِ الإضافةُ مع ﴿مِّن﴾ الابتدائيَّة على أنّ ظُللَ النّارِ ملاصقةٌ لهم مماسَّة تماسًّا مباشرًا لهم، وهذا فيه مزيدٌ من التَّخويف والتَّهديد والوعيد.

ظللٌ من النّارِ فوقَ أهلِ النّار مباشرة جزاءً لهم

الغرض من تنكير ﴿ظُلَلٌ﴾ وجمعها:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿ظُلَلٌ﴾ وجمعه في قولِه تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾؛ لإفادةِ التّهويل والتّكثير وتفظيع شأنها وشرّها؛ أي: ظللٌ من النّار شديدةُ الهول، عظيمةٌ لا يُقادَرُ قدرُها، وفي هذا مزيدٌ من التّخويف.

للمشركين ظللٌ كثيرةٌ من النّار مهولةٌ عظيمةٌ لا يُقادَر قدرُها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾:

الظُّللُ التي فوقَ المشركين يومَ القيامة هي من النّارِ

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بيانيّة، أزالتِ الوهمَ والرّاحةَ الحاصل من جرّاء استعمالِ لفظ ﴿لَهُمْ﴾ ولفظ ﴿ظُلَلٌ﴾، فبيّنت أنّ هذه الظُّللَ هي من النّار، وذلك أنكأُ ممّا لو أفهمهم الشَّرّ من أوَّل الأمر[1].

الغرض من التَّعبير بالاستعارة التَّهكُّمية في قوله: ﴿ظُلَلٌ﴾:

تشبيهُ الطَّبقةِ التي تحيطُ بأهلِ النّارِ بالظُّلّة تهكُّمٌ بهم

كلمةُ ﴿ظُلَلٌ﴾ جمعُ ظلَّة، وهي شيءٌ مرتفعٌ من بناءٍ أو أعوادٍ مثل الصّفة يستظلُّ به الجالسُ تحته، مشتقّةٌ من الظِّلّ؛ لأنّها يكون لها ظلٌّ في الشَّمس، وهي هنا في الآية في قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ليستْ مستعملةً في معناها الحقيقيّ، إنّما مستعملةٌ للغشاءِ والطَّبقةِ التي تعلو أهلَ النّار في نارِ جهنَّمَ بقرينة قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، شُبِّهتْ بالظُّلّة في العلوّ والغشيان[2]، بدليل قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: 41]، وفي هذه الاستعارة تهكّمٌ بهم؛ إذ في لفظِ الظُّللِ إطماعٌ لهم بشيءٍ من الرّاحة؛ لأنّهم يتمنّون ما يحجبُ عنهم حرّ النّار، ثُمَّ تأتي كلمةُ النّار تقضي على كلّ ما طمعوا به، ولذلك أخّرها؛ تهكّمًا بهم؛ لأنّه ليس للنّار ظُلل، بل هم في نارٍ شديدةٍ يريدون أنْ يستظلّوا من نارها بشيء، يبحثون عن أيِّ شيء، يعطيهم نسمةَ هواءٍ باردةً، فاللّهُ أرادَ أنْ يتهكّمَ بهم، "فعبّر عن طبقاتِ النّارِ بالظُّلل؛ إشارةً إلى أنّهم لا واقيَ لهم من حرّ النّار على نحو تأكيد الشَّيء بما يشبهُ ضدَّه"[3].

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾:

الإنسانُ يستظلُّ بشيء فوقه، فكيف يكون الظِّلُّ تحته؟! والجواب:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.

النّـارُ محيطةٌ بالكافرين لا يجدون منها خلاصًا ولا عنها فكاكًا

إمّا أنْ يكون التَّعبيرُ في الآية من بابِ المشاكلة؛ شُبِّهتِ النّارُ التي تحت أرجلهم بالنّار التي فوقَ رؤوسهم فكلتاهما تحرقُ، فكلتاهما ظلّة من النّار، ولأنّ ما تحت أرجلهم هو ظللٌ فوقَ آخرين ممّن دونهم؛ لِأنَّ جهنّمَ دَرَكاتٌ كثيرةٌ[1]، وإمّا أن يكون للمبالغة في شدّة العذاب، فالنّارُ محيطةٌ بهم ولا يجدون أيّ راحةٍ؛ ففي القَرارِ - كائنًا ما كانَ؛ وعَلى أيِّ حالٍ كانَ - نَوْعٌ من الرّاحةِ بالسُّكونِ؛ ولذا بَيَّنَ أنَّهم مُعَلَّقونَ في غَمَراتِ الاضْطِرابِ؛ يُصْعِدُهُمُ اللَّهيبُ تارَةً؛ ويُهْبِطُهُمُ انْعِكاسُهُ عَلَيْهِمْ بِرُجوعِهِ إلَيْهِمْ أُخْرى؛ فلا قَرارَ لَهم أصْلًا؛ كَما يَكونُ الحَبُّ في الماءِ عَلى النّارِ؛ يَغْلي بِهِ صاعِدًا وسافِلًا؛ لا يَقَرُّ في أسْفَلِ القِدْرِ أصْلًا[2].

كما لا يخفى ما في الظَّرفين ﴿فَوْقِهِمْ﴾، و﴿تَحْتِهِمْ﴾ من الإشارةِ إلى إحاطةِ النّار بهم من جميعِ الجوانب، واتصالِ ما فوق بما تحت، واختلافِ جهاتِ العذاب، وتنوّع وسائله، وتعدّد طرقه، حتى انتهى إلى الإحاطةِ الشّاملة بهم، كأنهّم صاروا في قبضة الظُّلل النّارية، لا يجدون لهم خلاصًا، ولا عنها فكاكًا[3].

بلاغة الإطناب في قوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾:

في الإطنابِ زيادةُ تهكّمٍ وغرابةٍ ومشاكلةٍ ومقابلة

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بتكريرِ لفظ ﴿ظُلَلٌ﴾ في قوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، ولم يقلْ: (من فوقهم ظللٌ من النار ومن تحتهم) - رغم أنّه معلومٌ من السّياق، وهو القياس اللُّغويُّ في القرآن - زيادةً في التَّهكّم بهم؛ لأنّ الظُّلَلَ لا تكونُ إلّا للرّاحةِ لا للعذاب، ولكونِ الظُّلّة - المأخوذةِ من الظِّلّ - من تحت في غايةِ الغرابة، ولذا أعادَ ذكرها ولم يكتفِ بالأولى[4]، فدلّ على أنّ النّارَ أدراكٌ وهم بين أطباقها[5]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.
(3) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 155.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.
(5) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 315.

أو لأجلِ المماثلة والمشابهة؛ لأنّ الظُّلّةَ السُّفلى مشابهةٌ للظُّلّةِ العُليا في الحرارة والإحراق والإيذاء[1]، وكذلك لفائدةٍ أخرى وهي المشاكلةُ والمزاوجةُ والمقابلةُ بين عذابِ الجحيم والنَّعيم لأهلِ الجنَّة في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾.

بلاغةُ الإيجاز بحذف المتعلّق في قوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾:

من بلاغةِ القرآن الإيجازُ والاختصار

حذفَ البيانُ القرآنيُّ المتعلّقَ في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾؛ إذ التقديرُ: (ومن تحتهم ظللٌ من النّار)؛ إيجازًا واختصارًا؛ لأنّه سبقَ في الكلام، ولفهمها في التَّحت من باب الأولى[2].

الغرض من فصل جملة ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ عن سابقتها:

استئنافٌ يهدّدُ بالوعيد ويبيّن الغايةَ من ذكرِ عذابِ أهلِ النّار

قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ إمّا تذييلٌ للتَّهديد بالوعيد من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، وإمّا استئنافٌ بيانيٌّ بتقدير سؤالٍ يخطرُ في نفس السّامع لوصف عذابهم بأنّه ظللٌ من النّار من فوقهم، وظللٌ من تحتهم؛ كأنْ يقول سائل: ما فائدةُ ذكرِ ما أعدّه اللّهُ لهم في الآخرة من عذابٍ بعد فواتِ تداركِ كفرهم؟ أو لمَ كلُّ هذا الوصف يا ربّ؟ فأجيبَ: بأنّ اللّهَ جعل ذلك العذاب في الآخرة لتخويفِ عباده، وهم النّاس أجمعون حين يأمرهم بالاستقامة ويشرّعُ لهم الشَّرائع؛ ليعلموا أنّهم إذا لم يستجيبوا للّه ورسله يكون ذلك عاقبتَهم[3].

الغرض من تقديم المسند إليه على خبره الفعليّ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ﴾:

وعيدُ اللهِ بالعذابِ في النّار أمرٌ مؤكّدٌ متحقّقٌ في الآخرة

تقديمُ المسند إليه على الخبر الفعليِّ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ مفيدٌ لتَقَوّي الحكم وتحقيقه وتوكيده، وهو تخويفُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 241.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.

اللّه تعالى عبادَه بالإخبارِ عن عذابِ النّار ووصفه لهم، فوعيدُ اللّه تعالى بالعذاب على الكفر والعصيان في الآخرة لا يكون إلّا صدقًا، وإذا اقتُهم إيّاه في الآخرة أمرٌ مؤكَّدٌ متحقِّق.

الغرض من التّعبير باسم الإشارة مصحوبًا بلام البعد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

جعلُ العذابِ الفظيعِ بمنزلة المحسوس أبلغُ في التّخويف

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ إشارةٌ إلى ما وصف من الخسران والعذاب بتأويل المذكور[1]، وقد جَعَلَ اسمُ الإشارة هنا العذابَ الغائبَ في الآخرة بمنزلةِ الحاضرِ المشاهَد في الدُّنيا، وهذا أنفعُ في التّخويف به، وأنجعُ في التّأثير على المخاطب، وفي استعمال اسم الإشارة الّذي يُستخدم للبُعد إشارةٌ إلى علوّ أثرِ هذا الوصف أو العذاب في التّخويف، وإلى فظاعةِ هذا العذاب[2]؛ أي: ذلك الأمرُ العظيم الشّأنِ يخوّف اللّهُ به عباده[3]، ومن ثَمَّ تومئ هذه الإشارة إلى أنّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَسيرَ إلى اللّهِ ﷻ على جانبٍ من الخَوفِ من العذابِ، وأنْ يَخافَ ممّا خَوَّفَه اللّهُ؛ حتّى يُحَقِّقَ العبوديّة[4].

دلالة التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُخَوِّفُ﴾:

تخويفُ اللهِ عباده بما أعدّه للمشركين من العذاب مستمرٌّ متجدِّد

أتى بصيغة المضارع الدّالّةِ على التّجدّد والحدوث والاستمرار؛ للدّلالة على أنّ تخويفَ اللّه تعالى عبادَه من خلالِ وصفِ عذاب المشركين وما أعدّه لهم في جهنَّمَ مستمرٌّ، ويتجدّدُ كلّما قرأنا وعيدَ اللّه في هذه الآيات، كما أنّ المضارع يفيدُ تصويرًا لهذا التّخويف، ممّا يبعثُ في النُّفوس الإقبالَ على الطّاعةِ والإخلاصَ لله.

الغرض من التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

الملكُ الأعظمُ الّذي صفاتُه الجبروتُ والكبر؛ عذابُهُ لا يُقادر قدْره

عبّر البيانُ الحكيم بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾؛ تربيةً للمهابة، وزيادةً في تعظيمِ هذا الأمر المهول،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 141.

وهو عذابُ النّار المحيط بالكافرين والعاصين، وهم لا يرهبونه ولا يرجعون عن غيّهم؛ لأنّ الملكَ الأعظم الَّذي صفاتُهُ الجبروتُ والكبر عذابُهُ لا يُقادر قدْرُه ولا يُحدُّ حدُّهُ[1].

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾:

ترتيبُ الكلام: (ذلك يخوّفُ اللّهُ عبادَه به)، ولكن قدّمَ الجارَّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول به ﴿عِبَادَهُۥ﴾؛ للتَّركيز والاهتمام والعناية بالمخوَّفِ به، وهو الخسرانُ وما أعدّه من عذابٍ لأهلِ النّار، وذلك لتفاديه والوقايةِ منه.

اهتمامٌ وتركيزٌ على المخوَّفِ به؛ لتفاديه والوقايةِ منه

المرادُ بالعباد ودلالته في قوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾:

كلمةُ (عباد) المُضافةُ إلَى ضَميرِ الجَلالَةِ في المَوْضِعَيْنِ في قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تعمُّ كلَّ عبدٍ من النّاس من مؤمنٍ وكافرٍ؛ إذ الجميعُ يخافون العذابَ على العصيان، والعذابُ متفاوتٌ، وأقصاه الخلودُ لأهلِ الشِّرك، فالكافرُ لعلَّه ينزجر، والمؤمنُ لعلَّه يزدادُ إيمانًا ويخافُ من المعاصي، وذلك بدلالة المقام، وهو مقامُ التّخويف، ولأنَّ قرينة قوله: ﴿عِبَادَهُۥۚ﴾ تدلّ على أنّ المنادَين جميع العباد، ففرقٌ بينه وبين نحو: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الزخرف: 68][2]، وقيل: المراد المؤمنون؛ لأنّهم المنتفعون بالتّخويف، فإذا سمعوا أنّ حالَ الكفّارِ ما تقدّم خافوا فأخلصوا في التَّوحيد والطّاعة، ولأنّ لفظ العباد في القرآن مختصٌّ بأهل الإيمان[3].

التَّخويفُ من العصيان يعمُّ المؤمنَ والكافرَ، وينتفعُ به المؤمنُ فيتّقي الله

سرّ الإضافة في ﴿عِبَادَهُۥۚ﴾ و﴿يَٰعِبَادِ﴾:

الإضافةُ في ﴿عِبَادَهُۥۚ﴾ و﴿يَٰعِبَادِ﴾ إلى اللّه سبحانه في قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ للتَّشريفِ والتَّكريمِ

العبوديَّةُ لله هي للتَّشريفِ والتَّكريمِ والاختصاص

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 241، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 548.

والاختصاص؛ أي: عبدًا جليلَ الشَّأنِ ممّن اختُصَّ بنا وشُرِّفَ بالإضافةِ إلينا، فالإضافةُ إضافةُ تشريفٍ لا إضافةُ تعريفٍ؛ لأنّ وصفَ العبوديّة للّه متحقّقٌ لسائرِ المخلوقات، فلا تفيدُ إضافته تعريفًا[1].

موقع جملة ﴿يَٰعِبَادِ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

أمرُ النّاس بالتّقوى للتّفادي من العذابِ الّذي أُعدّ لأهلِ العصيان

جملةُ ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تَفْريعٌ وتَعْقيبٌ للتّحذير في جُمْلَةِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾؛ للإلفاتِ إلى طريقِ السَّلامة والنّجاة من هذا البلاء الرّاصد، وذلك بتقوى اللّه؛ لأنَّ التَّخْويفَ مُؤْذِنٌ بأنَّ العَذابَ أُعِدَّ لِأَهْلِ العِصْيانِ، فناسَبَ أنْ يُعْقَبَ بِأَمْرِ النّاسِ بِالتَّقْوَى لِلتَّفادي مِنَ العَذابِ[2]، فلمّا أهّلهم للإضافة إليه وخوّفهم سَطَواتِهِ؛ أقبلَ عليهم عند تهيئتهم للاستماع منبّهًا على أنّه تخويفُ استعطاف[3].

الغرض من النِّداء بـ(يا):

إشعارٌ بأهمّيَّة الخطابِ وتنبيهٌ لهم على أنّه تخويفُ استعطافٍ

(يا) حرفُ نداءٍ وضعَ في أصله لنداءِ البعيد، فإذا نودي به القريب؛ فذلك للتَّأكيدِ المُؤْذِنِ بأنّ الخطابَ الَّذي يتلوهُ معنيٌّ به جدًّا؛ أي: إعلانًا وتنبيهًا، ولمراعاةِ مقام الرُّبوبيّة الرَّفيع في الأمر والنَّهي والتّوجيه، إذْ هو سبحانه العليُّ الأعْلَى، وللإشارةِ إلى أنّ من شأنِ الإنسان أنْ ينسى ويغفلَ وينشغلَ بالدُّنيا فيحتاج إلى التّنبيه، فكان هذا تنبيهًا لهم أنّ تخويفهُ لهم هو تخويفُ استعطافٍ.

سرُّ التَّعبير بالمنادى المضاف (عِبادِ) مع بيان سرّ حذف ياء المتكلّم:

موعظةٌ من ربّ كريم منطويةٌ على غايةِ اللُّطفِ والرَّحمة

جاء التَّعبيرُ بالمنادى المضاف لياء المتكلِّم المحذوفة - وهو أكثرُ أنواع المنادى في القرآن - في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: (يا عباد اللّه)؛ والخطاب في الأصل: (قل لعبادي الَّذين آمنوا)، ولكنّه كلّفَ النَّبيّ ﷺ تبليغهم بأنْ يناديهم باسم اللّه، فالنِّداءُ في حقيقته من اللّه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1135.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.

فنداءُ الله تعالى عباده مضيفًا إيّاهم إلى ضميره؛ تلطّفٌ ورحمة ورأفة بهم واستعطافٌ لهم، فهذه موعظةٌ من الله بالغةٌ، منطويةٌ على غايةِ اللُّطف والرَّحمة والمنَّة والفضلِ منه سبحانه على عباده[1]؛ وهو نداءٌ من ربّ كريم ليأخذوا طريقهم إليه سبحانه، حيث الأمنُ والسَّلامةُ والنَّعيمُ والرِّضوان[2]، كما أنّ التَّعبيرَ بالمنادى المضاف يفيدُ الخصوصيَّة، فيشيرُ إلى معنى: أنّ من خصوصيَّةِ عبادي أنْ يتّقوني دون من سواي، وحُذفتْ ياءُ المتكلّم في (عباد) إذ أصلها (عبادي)؛ اتّباعًا لرسم المصحف، وحذفُها - على أحدِ وجوهٍ خمسةٍ في المنادى المضاف إلى ياءِ المتكلِّم - هو الأفصح، وهي لغةُ القرآن والأكثرُ استعمالًا[3].

سرّ تقديم النِّداء ﴿يَٰعِبَادِ﴾ على الأمر ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

تهيئتُهم لتلقّي الأمرِ بالتّقوى؛ استعطافًا وتحبُّبًا للإقبالِ على العبادة

ورَدَت صيغةُ الأمرِ في تعبيراتٍ قرآنيَّةٍ متقدِّمةً على النِّداء، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: 197]، ولكنّه هنا قدّمَ النِّداءَ على الأمر؛ لجذبِ المشركين ولتحبيبهم في العودةِ والعبوديَّة، ولموافقةِ فواصل الآيات، ولأنّ المقامَ هنا مقامُ تحذيرٍ وترهيب، فهو جديرٌ باسترعاء ألبابِ المخاطبين إلى ما سيردُ مِن بَعْدُ من التّفريع على التّخويف[4]، فأتى بالنِّداءِ منبّهًا لتهيئتهم للاستماعِ إلى خطابهم بالأمرِ بالتَّقوى؛ للوقاية ممّا حذّرهم منه من العذاب.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

التّعقيبُ بالأمرِ بالتّقوى للتّفادي من العذاب

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ للتَّفريع والتَّعقيب لجملةِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾؛ لأنّ التّخويفَ مؤذنٌ بأنّ العذابَ أُعدّ لأهلِ العصيان؛ فناسبَ أنْ يُعقبَ بأمرِ النّاس بالتّقوى للتّفادي من العذاب[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 62.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1135.
(3) السّمين، الدر المصون: 1/ 359، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/ 442.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.

الغرض من فعل الأمر ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

تقوى الله واجبةٌ على العبادِ للوقايةِ ممّا يسخطه

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أمرٌ حقيقيّ يفيدُ الوجوب؛ طُلبَ فيه فعلُ التَّقوى من جميعِ النّاسِ مؤمنِهم وكافرِهم على وجهِ الاستعلاءِ من الله تعالى؛ ليتسبّبَ عن هذا الأمرِ أنْ يجعلوا بينهم وبين ما يُسخطُ الله وقايةً ممّا يرضيه ليرضى عنهم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظِّلّ والسَّقف:

ظلُّ النّارِ أغشيةٌ عذابٍ في صورةِ الظِّلِّ الَّذي يغمرُ مَن تظلّلَ به لا تفارقه

الظِّلُّ: هو ضوءُ شعاعِ الشَّمس إذا استترَ عنك بحاجز؛ أي: يُقال لكلّ موضعٍ لا تصلُ إليه الشَّمس[2]، وأصله يدلّ عَلَى سَتْرِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ[3]، بينما السَّقفُ هو كلُّ ما علاك من مظلّة ونحوها[4]، وأصْله يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في إطْلالٍ وانْحِناءٍ، ومنه سَقْفُ البَيْتِ؛ لِأَنَّهُ عالٍ مُطِلٌّ[5]، فهو أعلاه المقابلُ لأرضه، فالسَّقفُ: غِماءُ البيتِ، والسَّماء سَقفٌ فَوق الأَرْض[6]، وقد ناسبَ استعمال لفظ الظِّلل مع النّار في الآية دون السَّقف، للدّلالةِ على قربها من أصحاب النّار؛ فهي تسترهم، وتحيطُ بهم، ومن المعلوم أنّ ظلَّ الشَّيء لا يفارقه، وظللُ النّار أغشيةُ عذابٍ في صورة الظِّلِّ الَّذي يغمرُ مَن تظلّلَ به[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.
(2) الجوهري، الصحاح، والسَّمين، عمدة الحفاظ، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (ظلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظل).
(4) السَّمين، عمدة الحفاظ: (سقف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والمعجم الوسيط: (سقف).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»